فخرى أبو السعود

للأستاذ أحمد فتحى مرسى

قضى الأستاذ الشاعر فخرى أبو السعود — طيب الله ثراه وخلد ذكراه — فانطوى بموته صديق يعزّ على الأصدقاء فقده ، وأديب يشقّ على الأدب رزؤه فيه ، وعالم لن ينساه العلم وإن نسى الكثير غيره ، فمن حقه علىّ أن أكتب ، ومن حقه على الرسالة أن يتسع صدرها لما أكتبه عن أديب طالما طلعت علينا بالكثير من آياته وغرره .

قال البعض إنه مات منتحراً برصاص مسدسه فى لحظة ضيق بعد أن خط هذا البيت على رقعة :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش
ثلاثين حولاً — لا أبالك — يسأم

وقيل إنه فقد وعيه فى باخرة ترحيل الأطفال الإنجليزية التى أغرقها الألمان ، وقيل إنه انقطع اتصاله بأسرته فى انجلترا ، وقيل إن فى الأمر جريمة قتل ... إلى غير ذلك مما يذيعه الناس فى مثل هذه المناسبات ، إذا عمى عليهم الأمر ووقعوا فى الحيرة ، فذهبوا يتقصصون الآثار ، وينتحلون العلل ، ويضربون فى الأوهام ... ثم انبرت أسرته تكذب كل ذلك وتقول إنه مات برصاصة طائشة من رصاص مسدسه أثناء إصلاحه ... كل ذلك لا شأن لنا به فلقد مات الرجل — يرحمه الله — وانقضى الأمر ؛ إلا أن ما عرفته فى فخرى طول صحبتى له من صموده للحياة ، وثقته بالله وعدم تطيره من الحادثات ، يجعلنى كثير الشك فيما قيل عن الانتحار ... فقد كنت معه مرة فى معرض الحديث عن مقال فى الانتحار لأديب كبير ، ثم تطرق بنا الحديث إلى ذكر فلان من أدباء الشباب — وكان فخرى يعجب بأدبه ولا يعرفه — وأنه قد حاول الانتحار فى ذلك الحين ، فسخر فخرى منه ، فلما عرضت على فخرى أن أعرفه به ابتسم قائلاً : « إننى لا أود أن أعرفه »

* * *

عرفت فخرى أول ما عرفته فى أول عهده بالتدريس فى المدرسة السعيدية الثانوية ، وكان ناظرها فى ذلك العهد الأستاذ عبد الرحمن شكري . قدّمنى إليه صديق ، فخلت يدىَ ذى بدء ، أنه أحد الطلبة ، فقد كان — رحمه الله — ضئيل الجسم ، قصير القامة ، قليل الكلام ، شديد الخجل ، لا تبدو عليه سنه ؛ فلما قدمه الصديق إلىّ ، خلت أنه هازلٌ لا جاد ، أو أنه ربما اشتبه عليه الاسم — فكثيراً ما تتشابه الأسماء — ، وساعد على ذلك أن الصورة التى كنت رسمتها لفخرى فى ذهنى — من المطالعة — تتباين مع ما أراه جد التباين ، فسلّمت عليه فى فتور ووناء ، ثم إنه كان قليل الكلام — كما قدمت — فتوهمت أن ذلك قلة مبالاة ، فقابلته بالمثل ، فكانت مقابلة جافية أسرّها لى فخرى ، وعتب علىّ بعد ذلك بزمن

ثم مضت الأيام فذهبت إليه فى بعض الشأن ، وكنت قد نشرت قصيدة بجريدة الأهرام بعنوان « الصباح » ، فقابلنى مقابلة طيبة ، وجلسنا نتحدث عن القصيدة ، ثم عن الشعر فى مصر ، ثم قرأ لى قصيدة عنوانها « نجوم السينما » كان يعدّها للرسالة ، وأهدى إلى كتابه عن الثورة العرابية ؛ ... ثم تكررت المقابلات بعد ذلك ، واتصلت بيننا أسباب المودة ، فكنا نلتقى فى أكثر الأيام

على أن أثره لم يقتصر على علم النفس وطب الأعصاب بل تعداها إلى مختلف العلوم والفنون كالتربية (بداجوجيا) ودرس الميثولوجيا والشعر والنقد والفنون الرفيعة

حين قرر فرويد أن الناس قد يتشابهون فى أجسامهم ولكن نفس كل فرد كائن قائم فى ذاته لا وجه للشبه بينه وبين غيره فتح باباً جديداً ، لا فى العلم فحسب ، بل فى فن النقد والقصة وكتابة التراجم ، وجعل من بعض العلوم التى كان العلم الحديث يعتبرها ضرباً من الوهم كقراءة الطالع بواسطة النجوم أو الكف أو الكتابة علماً يقوم على نظريات جديدة لعلها صحيحة

وخلاصة القول أنه مهما اختلف العلماء فى الحكم على مذهب الفردية من ناحية العلم والأخلاق فلا سبيل إلى إنكار فضله لأنه أفاد الإنسانية فوائد جمة فى مختلف النواحى فسار بها شوطاً بعيداً فى التقدم والرقى وساعد على تخفيف ويلاتها وزاد فى ثروتها العلمية والفنية فاتسعت آفاق البحث وتشعبت أصوله وفروعه .

مصر الجديدة ١٥ - ٣٧

نقل نخرى بعـد ذلك إلى الرمل الثانوية ، وتركت أنا الأسكندرية ، ثم عدنا فالتقينا فى الأسكندرية بعد ذلك بعام ، وكنت قد اتصلت بالرسالة ، وكان قد بدأ يكتب فيها سلسلة مقالاته عن المقارنة بين الأدبين العربى والانجليزى ، فأثارت اهتمام كثير من الأدباء ، وقد أبدى لى الأستاذ الزيات إعجابه بها أكثر من مرة ، وكتب إلى نخرى يقول فى ختام خطاب له — أطلعنى عليه نخرى — : « فأستزيدك ، ثم أستزيدك ، ثم أستزيدك » . وكان فى نية الأستاذ الزيات طبع هذه المقالات بعد إتمامها ، ولـكن نخرى لم يتمها

ظهرت بعد ذلك مجلة الرواية ، وبعد ظهورها بنحو عام وقعت جفوة بين نخرى وبين الزيات أدت إلى قطع هذه المقالات ، وانقطاع نخرى عن الرسالة ... قابلته بعد ذلك بحين فشكا لى شيئاً من ركود الذهن بعد انقطاعه عن الرسالة ؛ وقال لى إنه شديد الخجل لأن الأستاذ الزيات ما زال يرسل إليـه مجلتى « الرسالة » و « الرواية » فى حين أنه لا يؤدى له أية خدمة نظير ذلك ...

وظهرت فى ذلك الحين مسابقة وزارة المعارف فى التأليف ؛ فعرض علىّ بعض ما كتبه . وكان — رحمة الله عليه — كثير الشك فى الفوز ، فطمأنته ورجوته أن يتمّ ما بدأ ، فأتمّه — وأظنه فاز بجائزتين — ؛ ثم انقطع حيناً عن الكتابة وانصرف إلى القراءة ، وكنت ألقاه فى ذلك الوقت كل يوم تقريباً ، فنمضى سيراً على الأقدام فى طريق « الكورنيش » ، ويمتد بنا الحديث فى الأدب والجدل أحياناً حتى نجد أنفسنا فى جهة لم نكن نقصدها ؛ وكثيراً ما كان يشغلنا الحديث حتى نقطع فى السير مسافات بعيدة دون أن ننتبه ؛ فقد كان رحمه الله يؤثر السير على الجلوس ؛ وكان شديد النفور من المجتمعات ولا أذكر أننى رأيته مرة فى مقهى أو منتدى ؛ ولعل ذلك هو السبب ، فى سعة اطلاعه ، ووفرة إنتاجه ، فكان يقسم فراغه بين التريّض والقراءة ، والكتابة . والظاهر أن ذلك يرجع إلى طبيعته الهادئة ، فقد كان يكره الضجة ، ويتجنب الناس . وكان منزله فى بقعة هادئة من رمل الأسكندرية ، وحتى طفله يبدو لى أنه ورث عنه هـذه الميزة ، فكان ينفر من الغريب ، ويبتعد عن الناس ، أذكر أنه تركه معى مرة وذهب لبعض شأنه ، فجعل الطفل يصرخ ويبكى ويتماص منى ليجرى ، وعبثاً حاولت تهدئته ولكنه لم يهدأ حتى عاد والده فسار إلى جانبه مبتعداً عنى

* * *

ولا أود أن أختم هذه الإلمامة قبل أن أشير إلى دراسة نخرى واتجاهه فى الأدب ؛ فقد تخرج فى المعلمين العليا واشتغل بعض عام بالصحافة ، ثم اختارته وزارة المعارف فى بعثة لها فتخرج فى جامعة إكستر فى انجلترا — وهناك تزوج من زميلة انجليزية له فى الدراسة — فلما عاد اشتغل بالتدريس فى المدرسة الثانوية بالأسكندرية ، وكان نخرى — رحمه الله — كما علمت منه مكباً على القراءة من صغره ، ولا سيما قراءة القديم ، حتى أوشك أن يستظهر كتباً بأكملها ، ويظهر ذلك جلياً فى أسلوبه ، فتمتاز كتابته بقوة الأسلوب وجزالة الألفاظ . كذلك تبدو فى شعره محاولة تقليد القدماء ، وقد تأثر فى هذا بالبارودى ، وكان يحفظ جل ديوانه ومختاراته . وكان يؤثر من الشعراء القدماء أبا تمام وبعض شعراء الجاهلية لا سيما طرفة بن العبد . كل هذه الدراسات القديمة كان لهـا أثر واضح فى شعره لا يخفى على قارئه ، وكان يختار منها أكثر شواهده فى مقارنته بين الأدبين العربى ، والإنجليزى . وكان يؤثر العقاد على شوقى وحافظ ، وكثيراً ما قام بيننا جدال طويل فى ذلك . وكان رحمه الله ينظم الشعر فى سيره فتراه يغمغم فى سيره بكلام لا تستبينه لانخفاض صوته ، حتى إذا جلس كتب ما قال ، ولا يزال كذلك حتى يتم القصيدة

وهناك ناحية تجب الإشارة إليها هنا وهى ضيق صدره بالنقد ، وإن كان سلم منه فى الصحف ، وكثيراً ما كنت آخذ عليه ذلك. حدث مرة أن عثرت له على بعض أخطاء فى نسبة الشواهد ، وعلى هنة لغوية فى قصيدة له ، وكان فى ذلك العهد يقضى الصيف بانجلترا ، فانتظرته حتى عاد فنبهته لذلك فغضب منى ، ودعانى فى اليوم التالى وقد جمع لى بعض ما كتبت فى الرسالة وجعل ينتقد لى بعض المعانى حتى يرد على بالمثل

وقد نشر نخرى القسط الأكبر من كتابته بمجلة الرسالة ، واتصل فى أواخر أيامه بمجلة الثقافة وجعل يكتب بها حتى توفاه الله ، وفيما عدا ذلك له متفرقات بجريدة الأهرام والهلال وغيرهما